الحياة ثورة دائمة

الحياة ثورة دائمة..

إنها ثورة على الضعف والبلادة وتمرد على الجمود والسكون ورغبة جادة في تطوير أشياء الدنيا من حولها بحيث يشعر الإنسان الحي أنه يحقق ذاته في كل يوم وأمام أية أزمة كما لو أنه يعيد صنع نفسه، يستشعر مسؤولية رجولته.

فما دام أننا أحياء فنحن ثوريون، وبعبارة أخرى نحن نستجيب لتحديات الدنيا من حولنا إستجابة تستوعب بها كل المسؤوليات فترتفع إلى مستوى هذه المسؤوليات ثم نخرج من كل مواجهة ونحن أشد ثقة بأنفسنا وأكثر اطمئناناً إلى عناية الله بنا.

وعندما لا تعود الحياة عملية ثورية مستمرة تفقد محتواها الإنساني وجوهرها الإلهي ثم تهبط وتهبط حتى لا يكاد يبقى منها غير أنفاس تردد، وحركات هي أشبه باختلاجات الكائنات الدنيا من مخلوقات الله التي رفضت الأمانة التي عرضت عليها من رب السماء والأرض..

كان الإنسان إنساناً في منطق الخلق الإلهي، لأنه قبل التحدي الكبير الذي وضعه الله أمامه.. تحدي عرض أمانة الإيمان بإله خالق وبإنسان يكون خليفة الله في الأرض.. وهذا القبول من جانب الإنسان هو الذي منحه أهميته وخطوه، وارتفع به إلى المستويات العالية التي قدر الله سبحانه وتعالى له أن يرتفع إليها في عملية تفوقه على ذاته.

في ضوء هذا العرض من قبل الله عز وجل، وهذا القبول من الإنسان، جاءت الآية القرآنية الكريمة تصديقاً للسر الإلهي وحقيقة الإنسان في مبرر وجوده ومعنى ظهوره.

" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ".. الأحزاب 73.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

من الطبيعي أن تأبى السموات والأرض قبول هذه الأمانة لأن فاقد الشيء لا يعطيه.. السموات والأرض لا تبدع ولا تتفوق على ذاتها ولا تواجه التحديات. بل هي خاضعة لسنن ثابته وقوانين دائمة لا بد لها في تعديلها أو تغييرها. أما الإنسان الذي خلقه الله خليفة له ووهبه القدرة على مواجهة المسؤوليات وأعطاه من ملكات الإبداع ما يشعر معه بأصالته واعتبر نجاحه في المهمة شيئاً من أشياء العبادة وثورة مثمرة على الذات، في طابق مرتفع أبداً تسرقه جوانبه بإطراء، وانجذاباً نحو عالم غير العالم اليومي بأبعاده المادية، في ضوء أشواق يستشعر روعتها في أعماق ذاته. أما هذا الإنسان فهو تعبير عن الإبداع الإلهي، وتجربة متفوقة جديرة بتحقيق أعظم المنجزات وقد سخرت لها السموات والأرض وما بينهما.

والإنسان، هذا الخلق الإلهي العظيم، الذي فضّله الله سبحانه وتعالى على كثير ممّن خلقَ تفضيلاً، هذا الإنسان يحقّق واجب العبادة لا في حدود الأشكال الخارجية لها وحسب بل في ضوء كونها وسيلة إثراء لروحه وتغذية لأخلاقه وتدعيماً لقدرته على الارتفاع إلى مستوى الأمانة الالهية التي عرضت عليه.

إنّ عبادة الإنسان التي هي مبرر وجوده والغاية البعيدة له، هي إذن إثراء الحياة وإغناؤها وجعلها أكثر فاعلية وقوة وصفاء وشفوفاً. وهي بعبارة أخرى الجانب العملي الذي تتجسم به الأمانة عملاً وتصرفاً وسلوكاً وارتفاعاً مستمراً إلى مستويات أعلى وأعلى يكون بها الإنسان أقدر على القيام بأعباء الخلافة في الأرض..

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (الذاريات: 56)..

وإذا كنا قد اخترنا هذه الزاوية المضيئة المشرقة من جوانب المحتوى الإنساني الذي صنعته يد الله وجعلت منه ينبوعاً لا ينضب لاستجابة الإنسان أمام تحديات الدنيا ومفاجآتها المختلفة فلأننا نواجه اليوم دورة من دورات المآسي المتعاقبة التي عرفناها كشعوب إسلامية على امتداد العقود الأخيرة من هذا القرن. نواجهها شديدة الحدة تكاد تدعو إلى اليأس وتدفع إلى الانهيار عند ضعفاء الإيمان ممن لا يملكون رؤية الإنسان في كامل أشواقه الروحية.

ومن حقنا أن نتساءل ونحن أمام هذه الدورة المتعاقبة وقد جاءنا اللظ[1] والخطر، وانقضت علينا عناصر العدوان من كل مكان:

أين نحن من هذا الإنسان الذي فضله الله على كثير ممن خلق، وكرمه وتحدث عن قبوله للأمانة وجعل الغرض من وجوده تلك العبادة الأصيلة التي ترتفع به إلى مستويات مطردة العلاء؟

هل كان الفشل بسبب نقص في السلاح؟ ونقص في المال؟ وضيق في المعرفة؟

الحق أن الذي ينقص الإنسان العربي هو الموقف الروحي العميق الذي اتخذه من الأحداث التي يواجهها.

[1] - اللظ :العسر، أي عسر شديد متشدد.

إنها الخفة في مواجهة المسؤوليات..

إنه الاستهتار في القيام بالواجب..

إنه الجد الغائب في تنفيذ الأذان [2]

إنه الوعي الأخلاقي الضعيف لمعنى القتال ومسؤوليات الحرب..

وأخيراً هو الرؤية الغامضة لقدرات الإنسان العربي..

الحرب أخلاق قبل كل شيء.

والعمل مسؤولية..

والتفكير أمانة.

والحياة ثورة مشدودة إلى هذه المعاني كلها تستمد منها الغنى والتوتر والقدرة على النمو والتجدد..

ثم تأتي العبادة لتكون الإطار الذي تتلاقى فيه كل هذه المعاني ولتحقق به ثورية الحياة في أروع مظاهرها وقوتها وقدرتها على السمو..

وكم تبدو لنا العبادة بعيدة عن أغراضها الإلهية حين تتحول إلى مجرد شكليات يحاول صاحبها أن يسكت بها ضميره الواهن ووجدانه الفقير وأن يهبط بها مفهوم الأمانة، إلى مستوى الاجترار المتكرر الذي دفع الرسول عليه السلام إلى القول وهو الذي لا ينطق عن الهوى: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له".. إن الله يلفها كما تلفّ الخامة البالية ويرمي بها وجه صاحبها..

فالفارق الكبير بين العبادة الثرية الغنية التي تتجدد بها حياة العابد وبين الوثنية التي يسقط صاحبها في التفاهة والعبودية الذليلة الغبية، ويبتعد بها عن الأشواق الكبيرة التي تشدّه إلى الله وتنير قلبه، هو ذاك الذي تحدث عنه الرسول عليه السلام، حين اعتبر الصلاة العاجزة عن رد الفحشاء ودفع المنكر خرقة بالية سخيفة يرمى بها وجه صاحبها في ازدراء واضح ظاهر..

وها نحن أولاء، وقد واجهنا خطر العدوان يأتينا من كل أقطارنا ونقض علينا من تحتنا ومن فوقنا، نشعر أن علينا إعادة النظر في وعينا لحقيقة الإسلام منهجاً وفلسفة وطريقة.

ها نحن أولاء نشعر أن خطتنا السابقة في الإعداد لليوم الفاصل هي خطة فاشلة مسكينة مثقلة بالجهل بعيدة عن مواطن الإشراق الروحي..

ها نحن أولاء نكتشف ضرورة إعادة النظر في تكوين الإنسان المسلم في أرواحنا وقلوبنا فلا نمضي باحثين كما كنا من قبل عن الحلول السهلة هاربين من المسؤوليات خائفين من ضغط الوجدان الحي.

---

[2] - الأذان :ما يصدر من إعلام وتبليغات يستوي فيها الفرد والجماعة.

إن الذي فشل حتى الآن هو فقرنا الروحي.. وتحول محتوانا الأخلاقي.. وركاكة الطموح في نفوسنا.. وانقطاع ما بيننا وبين التراث الذي هو وحده مفجر عبقريتنا الإنسانية التي صنعتها يد الله ومنحتنا إياها وطرحت أمامنا طريقين نختار منهما طريق الهداية التي لا تعني غير ثورة على صورة الإسلام التي عرضنا لها من قبل.

هذا الإنسان الجديد الذي ينتصر على عدوه الخارجي مبتدئاً بانتصاره على الميوعة والتفاهة والغرور والبلادة في نفسه، هو وحده معقد أملنا ومناط قدرتنا وينبوع ثورتنا الحقيقية.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.." (الرعد 11)..

لقد واجهنا العدو حتى اليوم وكل قلب من قلوبنا غارق في عناية روحية مؤلمة فلنستعد لمواجهته وقد بدلنا الفرقة وحده والحذر ثقة والخوف جرأه والبلادة. نشاطا وكفاحاً والغباء رؤية واضحة..

هذا الإنسان الجديد هو الذي وعده الله بالانتصار له والله لا يخلف الميعاد مع مثل هذا الإنسان وحسب...